

الكتابة الموسوعية في العصر المملوكي مقارنة في مجموعة من الموسوعات

## Encyclopedic writing in the Mamluk era An approach in a collection of encyclopedias

• اسم ولقب المؤلف الأول: حياة مستاري hayat.moustari

الدرجة العلمية والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ من جامعة باتنة

البريد الإلكتروني: hayat.moustari@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2021/03/21 . تاريخ القبول: 2024/04/27 . تاريخ النشر: 2024 /06/04

### ملخص:

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل ظاهرة التأليف الموسوعي التي انتشرت في العصر المملوكي انتشارا واسعا، وأتحتفت المكتبة العربية ب ذخائر تراثية في غاية الروعة والقيمة العلمية والأدبية والتاريخية، حيث ظهرت في شكلها النهائي بعد أن سبقتها محاولات كثيرة مهدت لها السبيل ورسمت لها المعالم، وذلك من خلال التعريف بالكتابة الموسوعية في العصر الحديث، وبيان الظروف التاريخية التي جعلت العصر المملوكي يختص بهذا النوع من التأليف، واستعراض بعض النماذج من هذه الموسوعات المشهورة التي تؤكد أن الثقافة العربية الإسلامية قد حازت قصب السبق في هذا التخصص.

كلمات مفتاحية: الموسوعات، العصر المملوكي، التأليف، الأدب، الثقافة العربية

### Abstract:

This research examines and analyzes the phenomenon of encyclopedic compilation that spread widely during the Mamluk era, enriching the Arabic library with treasures of heritage of great beauty, scientific, literary, and historical value. It emerged in its final after many preceding attempts that have paved the way and outlined its features, through defining encyclopedic writing in the modern era, elucidating the historical circumstances that made the Mamluk era specialize in this type of composition, and reviewing some examples of these famous encyclopedias that confirm that Islamic Arab culture has taken the lead in this field.

**Keywords:** Encyclopedias, the Mamluk era, Authorship, Literature, Arabic culture

## مقدمة:

لقد مرت الثقافة العربية منذ نشأتها بمراحل عديدة تدرّجت فيها من طور إلى طور، وظلّت تتسع آفاقها، وتتراكم منجزاتها، إلى أن انقضى القرن السادس الهجري فإذا بمعظم العلوم قد اكتملت وبلغت أوج نضجها، واستوت منظومتها المصطلحية استواء تاماً. فبعد أن بدأت الحضارة العربية الإسلامية مسيرتها في القرن الأول الهجري بالرواية، ثم الجمع، والرصد، عرف القرن الثاني الهجري حركة تدوين نشيطة، واستهلكت خطواتها الأولى بمؤلفات بسيطة تجمع الأشعار، والأخبار، والنوادر، واللغة، والتاريخ، والمسائل النحوية، والحكم والأمثال في كتاب واحد، ثم انتقلت شيئاً فشيئاً إلى المنهجية الواضحة والتخصص الموضوعي، فظهرت كتب التفسير، والحديث، والفقه، والكتابات الأدبية، والمؤلفات التي تهتم بطبقات الشعراء، والكتابات النقدية، والتاريخية، والطبية، والفلكية، والرياضية وكثير من العلوم والفنون التي أصبح لها نوابغها وعلمائها الذين بلغوا فيها شأواً بعيداً.

ثم اجتاحت قوات التتار بكل وحشيتها وعنفها الطاغية قلب العالم الإسلامي وأسرفت في القتل والتدمير وإعدام الكتب وحرقت المكتبات بما شكّل صدمة قوية للمسلمين، وظنوا أن هذه هي نهايتهم المحتومة، غير أن وقائع الزمن أثبتت أن عالم الأفكار - كما يسميه مالك بن نبي - كان لا يزال في أوج نضجه وقدرته على العطاء، فانتقل مركز القيادة من بغداد إلى مصر والشام، وما لبثت شعلة الحضارة أن عادت إلى توقدها وتألّفها وأبدعت مرة أخرى، واستكملت المسيرة الحضارية عندما استوعب أبنائها علوم أسلافهم ووجدوها قد بلغت مبلغاً كبيراً من الكمال فأروا أن الواجب يحتم عليهم لمّ شمل هذه العلوم وتقييدها في مؤلفات ضخمة فظهرت الموسوعات في أجمل صورة وأبهى حلة لتكون الشكل الأمثل للتأليف الموسوعي الذي بدأ قبل الحقبة المملوكية لكنه لم يبرز بشكله النهائي إلا في العصر المملوكي، وكانت هذه الموسوعات ميداناً فسيحاً لأصحابها ليضمونها إضافات إبداعية مما جادت به قرائحهم فكانت بحق عبارة عن أعمال علمية جلييلة يُعني الواحد منها عن مائة كتاب.

ويطمح هذا البحث إلى مقارنة الكتابة الموسوعية من حيث مفهومها الحديث، وبيان أهم سماتها في العصر المملوكي الذي يعد عصرها الذهبي في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، والوقوف عند بعض النماذج المشهورة من هذه الموسوعات مثل "نهاية الأرب في فنون الأدب" لأحمد بن عبد الوهاب النويري ذات الطابع التاريخي، و"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لشهاب الدين بن فضل الله العمري والتي غلب عليها الطابع الجغرافي، و"صبح الأعشى في صناعة الإنشا" لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي ذات الطابع الأدبي واللغوي، ومحاولة تحليلها وبيان أبعادها الكبرى من أجل التأكيد على أصالة الكتابة الموسوعية في الثقافة العربية القديمة، وبخاصة في العصر المملوكي.

## أولاً: المبحث الأول: الكتابة الموسوعية مفهومها، خصائصها، أهميتها

الموسوعة مصطلح عربي حديث، مشتق من الفعل (وسع) الذي يدل على الشمول والكثرة والتنوع، وتعني في المصطلح الكتاب الذي يسع معلومات في كل ميادين المعرفة. وهو ترجمة للمصطلح اليوناني (إنكايكلوس بايديا **Enkyklios Paideia**) الذي يعني الكتب اللازمة للتربية الصحيحة للأطفال والتي تتضمن المعرفة البشرية والعلمية والفنية، ثم انتقل إلى اللغة اللاتينية أواخر القرن السابع عشر الميلادي حيث تغيرت دلالاته وأصبح يرمز للخلاصة الوافية للمعرفة، ويقابله بالإنجليزية مصطلح (**Encyclopedia**) وبالفرنسية (**Encyclopédie**) ويُعدُّ الفرنسي أندريه لو بريتون **André le Breton** (1779/1708م) من أدباء القرن الثامن عشر الميلادي رائد أول جهد جماعي لتجميع وتصنيف وإنشاء المعارف البشرية المُتاحة، وكبير المحررين للموسوعة الحديثة. وقد جند لتنفيذ فكرته نخبة ممتازة من الفلاسفة والأدباء والشعراء من أشهرهم: فولتير، ومونتسكيو، وروسو، وديدروت، ودالمبرت، وهم الذين ألهموا بقية بلدان أوروبا احتذاء هذا المثال، حيث تم إنجاز هذه الموسوعة في القرن الثامن عشر الميلادي وصدرت في 166 جزءاً<sup>1</sup>.

ثم توالى الموسوعات بعدها، وتفرّعت وتعددت بتعدد ميادين العلوم وكثرة المعارف الإنسانية. وتضمنت المعاجم والمؤلفات المختلفة تعاريف كثيرة لها منها ما جاء في معجم المعاني الجامع من أنّ: "الموسوعة: كتابٌ يجمع معلومات في كل ميادين المعرفة، أو في ميدانٍ منها، مرتبةً ترتيباً هجائياً"<sup>2</sup>، ومنها ما ورد في المعجم الوسيط أنّ الموسوعة: "كتاب يجمع معلّومات في كل ميادين المعرفة أو في ميدانٍ منها مرتبةً ترتيباً أبجدياً (محدثة)"<sup>3</sup>، ومنها ما جاء في معجم عبد الغني أيضاً أنّ الموسوعة: "مُعْجَمٌ يَضُمُّ مَعْلُومَاتٍ وَافِيَةً وَمُرَكَّزَةً عَنِ الْمَعَارِفِ الْإِنْسَانِيَّةِ مُرْتَبَةً تَرْتِيباً أَبْجَدِيّاً أَوْ حَسَبَ الْمَوَاضِعِ، وَكُلُّ مَوْسُوعَةٍ تَحْتَلِفُ حَسَبَ حُطَّتِهَا وَمَنْهَجِهَا وَأَهْدَافِهَا، وَتُسَمَّى أَيْضاً مَعْلَمَةً"<sup>4</sup>.

وعرّفها بعضهم بأنها المؤلّف الذي يعرض مختلف فروع المعرفة البشرية، أو يتضمن كل مطلب من مطالب ثقافات الأمم ومقومات حضارتها مرتباً حسب حروف الهجاء أو وفق منهج يتصل بالبحوث، أو أنها عبارة عن كتب كبيرة ضافية وشاملة تختص اختصاصاً جزئياً بكل ميادين العلوم والفنون المعروفة من لغة وأدب وتاريخ وسياسة وآثار وبلدان وغيرها<sup>5</sup>. وذهب بعض الدارسين إلى أن مصطلح الموسوعة يحيل إلى الأعمال المرجعية الضخمة التي تُمكن من الانتقال بين التخصصات المختلفة بسهولة.

وإذا كانت الموسوعات قد بدأت مكتوبة ومطبوعة فإن ثورة الاتصالات وظهور شبكة الإنترنت قد أفسح المجال لظهور فكرة موسوعات الإنترنت، وكانت موسوعة انتربيديا (**Interpedia**) من أوائل هذه الموسوعات. أما الآن فإن ويكيبيديا هي التي تعتبر أكبر موسوعة على الإنترنت.

<sup>1</sup>. معنى الموسوعة <https://ar.warbletoncouncil.org/enciclopedia-2836>

<sup>2</sup>. معجم المعاني الجامع. جامعة النجاح الوطنية. عمادة كلية الدراسات العليا. قسم اللغة العربية وآدابها. مكتبة عين الجامعة. حرف الميم

<sup>3</sup>. مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط. مكتبة الشروق الدولية. القاهرة. ط4. 1425هـ/2004م. ص1031

<sup>4</sup>. عبد الغني أبو العزم. معجم الغني الزاهر. مؤسسة الغني للنشر. الرباط. ج4. حرف الميم

<sup>5</sup>. مصطفى الشكعة. مناهج التأليف عند العلماء العرب. دار العلم للملايين. بيروت. ط6. نيسان/أبريل 1991م. ص731

ومن خصائص الموسوعات الحديثة أنها تُعنى بمحاولة الإجابة عن أسئلة مثل: من؟ وما؟ ومتى؟ وأين؟ وكيف؟ ولماذا وجدت هذه الأشياء؟ كما تتميز بأنها مصدر واسع للمعلومات باعتبارها محاولة لتوثيق وجمع المعرفة الإنسانية، وأن هذه المعلومات موثقة توثيقاً علمياً ومنهجياً، وأنها قابلة للإضافة والتجديد لمواكبة الحركة العلمية والثقافية في العالم الذي أصبح مفتوحاً بعضه على بعض بشكل غير مسبوق، وأنها مكتوبة بأقلام الخبراء والمتخصصين والكُتّاب المهرة والباحثين المتمكّنين. وأنها تنقسم إلى موسوعات عامة وموسوعات متخصصة، وموسوعات للكبار، وأخرى للشباب، وأخرى للصغار.

والموسوعات الحديثة في غالبيتها العظمى عبارة عن إنجاز جماعي، إذ ليس باستطاعة شخص واحد أن يكتب ويوضّح بالرسوم والخرائط والأشكال موسوعة عامة: "إن إنجاز مثل هذا المشروع يحتاج مجهوداً مشتركاً يعتمد على جهود العلماء والمتخصصين الفنيين، والباحثين وخبراء المكتبات والمحريين والتربويين والفنانين ورسّامي الخرائط. كما يتطلّب مثل هذا المشروع استثمار الناشرين أموالاً طائلة. ولكي يحافظ الناشر على تجديد الموسوعة ومواكبتها لما يستجد من معلومات وأحداث، فإنه يحتاج جهازاً دائماً من الخبراء والموظفين<sup>1</sup>.

وتكمن أهمية الموسوعات في كونها تتضمن كنوز المعرفة الإنسانية في مختلف التخصصات ومنذ أقدم العصور، وتحتوي على حقائق موثقة بمصادرها الأصلية ومرتبّة ترتيباً منهجياً، وتتميّز بدقة المعلومات بحيث تزود الباحثين بمادة علمية جاهزة، وتوفر عليهم أوقاتاً ثمينة، وتمدهم بكل ما يحتاجونه من المعلومات التي يبحثون عنها، وتمكنهم من سرعة الوصول إليها، كما تضع بين أيديهم قوائم بيبليوغرافية في غاية الأهمية تفتح لهم آفاقاً واسعة لارتداد موضوعات جديدة ذات صلة بموضوعهم الأساسي. وتستمد أهميتها أيضاً من قدرتها على الإجابة على كل تساؤلات الناس البسطاء الذين يبحثون عن إجابات لها في أي علم من العلوم، أو فنّ من الفنون. ومن أشهر الموسوعات العالمية: الموسوعة البريطانية، والموسوعة الجغرافية، والموسوعة الفلكية، وموسوعة تاريخ مصر القديم.

وعلى الرغم من أن مصطلح الموسوعة مصطلح حديث، إلا أن كثيراً من كتابات العلماء المسلمين في كل فروع العلم والأدب قد سرت فيها الروح الموسوعية، وباتت تقترب من معاني هذا المصطلح اقتراباً شديداً وتأخذ شكلاً موسوعياً واضحاً، وإن كان منهجها في الترتيب - غالباً - غير ألفبائي. وقد بدأ ذلك جلياً منذ القرن الرابع الهجري الذي يقابلنا فيه ابن قتيبة الذي يعدُّ أول من وضع مرجعاً موسوعياً عربياً كبيراً هو كتاب (عيون الأخبار)، جمع فيه شتى المعارف، وقسمه إلى كتب مثل كتاب الحرب، وكتاب الحوائج، وكتاب النساء، وغيرها. وقد عاصره الجاحظ الذي صنف كتابه (الحيوان)، وهو أحد أوائل الكتب الموسوعية المتخصصة، كما وضع الفيلسوف الفارابي موسوعة سماها (إحصاء العلوم)، وفي البصرة وضع إخوان الصفا (رسائل إخوان الصفا). ومن أهم الكتب الموسوعية في القرن الرابع الهجري (مفاتيح العلوم) لمحمد بن أحمد الخوارزمي، صنف فيه المعارف العربية الإسلامية كالنحو والشعر، والمعارف الأعجمية الوافدة مثل الكيمياء والمنطق، و(الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني وغيرها<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - موسوعة <https://www.marefa.org/>

<sup>2</sup> - ينظر: تاريخ الموسوعات العربية <https://berber.ahlamontada.com/t2586-topic>

وظلّت الكتابة الموسوعية تتطور ببطء في رحاب الحضارة الإسلامية إلى أن جاء العصر المملوكي الذي عرفت فيه قفزة جبارة، وبلغت عصرها الذهبي، حيث تميزت بنطاقها الموضوعي الواسع، وتنظيمها وترتيبها المنهجي وتقسيمها الدقيق، وتنوع مصادرها. وهذا دليل على أنها ليست خاصة بهذا العصر كما شاع في كثير من المصادر والمراجع الأدبية والتاريخية: "إن الموسوعات ظهرت متتابعة متسلسلة يلاحق بعضها بعضاً ويتتابع مؤلفوها على مسرى الزمان تتابعا متصل الحلقات قصير الفواصل الزمنية، وهي إذن ليست مختصة بالعصر المملوكي لسبب بعينه، وإنما هي امتداد طبيعي متطور متغير لقفلة الفكر الإسلامي ومسيرة العقل الإنساني، وإن قصرها على عصر معين لسبب معين أمر ينبغي إعادة النظر فيه واستبعاد النتائج التي بنيت عليه وترتبت على أساسه"<sup>1</sup>. وبناءً عليه، فقد أثبت التاريخ للمسلمين هذا السبق الحضاري الذي سجّله في هذا الميدان.

### ثانياً: المبحث الثاني: الكتابة الموسوعية في العصر المملوكي

يستغرق عصر المماليك المرحلة التاريخية الممتدة بين سنوات (648هـ/ 1250م حتى 923هـ/ 1517م). وقد قامت دولة المماليك على أنقاض دولة الأيوبيين، وبسطوا سلطانهم على مصر وبلاد الشام، واستمروا في سدة الحكم إلى أن فتح العثمانيون مصر. وكان لسقوط بغداد على يد التتار وما أسفر عن هذا الغزو من كوارث حضارية مست جميع مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للمسلمين انتقلت الريادة الحضارية إلى مصر التي تحوّلت إلى ملجأ آمن للاجئين الفارين من بطش التتار، كما أصبحت بعد ذلك أيضاً ملجأً للأندلسيين الفارين من حرب الإبادة والتهجير التي شنها عليهم الإسبان بعد سقوط غرناطة (897هـ): "فقد أصبحت مصر على عصر سلاطين المماليك محورا لنشاط علمي كبير، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار شريقها وغربها... ومما جعل مصر محورا للنشاط العلمي ما أصاب المسلمين في القرن السابع الهجري من كوارث على أيدي المغول في العراق والشام، وعلى أيدي المسيحيين في الأندلس، إذ تحوّل كثير من علماء تلك الأقطار إلى مصر واختاروها محلا لإقامتهم ونشاطهم... ثم إنّ إحياء الخلافة العباسية بمصر على أيدي المماليك سنة 659هـ هيّا القاهرة لأن ترث بغداد وتصبح مركز النشاط العلمي والديني في العالم الإسلامي"<sup>2</sup>.

وبذلك نجح المماليك في حمل لواء الثقافة العربية الإسلامية وحمايتها من غوائل الدهر لمدة ثلاثة قرون: "غربت فيها شمس تلك الثقافة بمشرق الدولة وكادت تغرب بمغربها"<sup>3</sup>، وسجّل ابن خلدون في مقدمته هذه الريادة التي انفردت بها مصر في ذلك الوقت فقال: "واختصّ العلم بالأمصار الموفورة الحضارة، ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أم العالم وإيوان الإسلام، وينبوع العلم والصنائع"<sup>4</sup>.

1. مصطفى الشكعة. مناهج التأليف عند العلماء العرب. ص 757، 758.

2. سعيد عبد الفتاح عاشور. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك. دار النهضة العربية. القاهرة. 1992م. ص 157.

3. السباعي بيومي. تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين. مطبعة العلوم. القاهرة. 1974م. ص 18.

4. عبد الرحمن بن خلدون. المقدمة. دار القلم. بيروت. ط 4. 1981م. ص 512.

وقد أكثر المماليك من بناء الجوامع والمدارس، حيث ذكر ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري أن مدارس مصر: "لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"<sup>1</sup>. وبلغ ما أنشأه في القاهرة وحدها: "نحو من أربعين مدرسة، وأوقفوا عليها الأوقاف الدايرة التي تهَيَّ لها أسباب الحياة والاستمرار في أداء رسالتها"<sup>2</sup>، وكان للأوقاف والأحباس دور رائد في تثبيت أركان هذه المدارس ودعم نظامها ورسالتها العلمية، حيث كان الأمراء والوزراء والأعيان وكبار التجار يتنافسون في إنشاء الأوقاف التي تدرّ على المساجد والزوايا والمدارس والمعاهد أموالاً وفيرة. وكان لديوان الإنشاء عند المماليك مكانة خاصة: "وكان لا يُوظَّف فيه إلا من اشتهر بالبلاغة، وأوتي أسرار البيان والفصاحة، وكثيراً ما ارتقى كاتب الإنشاء عندهم إلى مرتبة الوزارة"<sup>3</sup>، مما أسهم في تشجيع الحركة العلمية، واجتهاد العلماء والطلبة في طلب العلم والتوسع فيه والتجويد في الكتابة طلباً للمناصب العليا.

وبالموازاة مع ذلك اعتنى المماليك بإنشاء دور الكتب وتزويد المدارس بأعداد كبيرة منها، واستقدام نوادر المخطوطات ونفائس المؤلفات ونسخها ووضعها في متناول العلماء وطلبة العلم، على الرغم من غلاء أثمانها، إذ كانوا يبذلون في هذا المجال أموالاً طائلة<sup>4</sup>، وتنافس الأمراء والأعيان والعلماء في جمع أمهات الكتب في مكتبات خاصة: "فقد روى ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور) بين حوادث عام 888هـ أن القاضي نجم الدين يحيى بن حجي، كان عالماً فاضلاً، ولما مات في العام المذكور وُجِدَ عنده خزانة كتب بها أكثر من ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة"<sup>5</sup>، فاستعنت حركة التعليم ونشطت نشاطاً كبيراً، وبذل العلماء جهوداً محمودة في نشر العلم بين الطلبة لحرص السلطة الحاكمة على اختيار أكثرهم تقوى وعلماً وأسماهم أخلاقاً، وسخائها في إجراء الأرزاق عليهم، وكان التعليم مجانياً، يستفيد فيه الطلبة من المسكن والمأكل والملبس، فكثرت الفقهاء والعلماء وحفّظوا الحديث، وعلماء الكلام، والأصوليون، واللغويون، والنحويون، والأدباء، والشعراء، والمؤرخون، والفلكيون، والصوفية: "وتوالت طبقات هؤلاء الرجال الأفاضل طبقة بعد طبقة على مدى العصر المملوكي. وكان جيل الملك الناصر محمد بن قلاوون أملاً أجيال العصر بأفاضل الرجال، وهو النصف الأول من القرن الثامن الهجري، ويليه النصف الثاني، وأكثر هؤلاء الرجال تخرج في أكثر من فنّ وعلم"<sup>6</sup>.

وكان طبيعياً أن يسفر اتساع حركة التعليم وكثرة العلماء في كل علم وفن عن حركة تأليف نشيطة وواسعة، حيث شهد العصر المملوكي وفرة لافته للنظر في مجال التأليف والتصنيف كانت هي الشاهد على خصوبة هذه المرحلة: "وكانت الوصلة الصالحة بين الماضي والحاضر، وهي - بما أنجبت من مؤلفات - حلقة ذهبية فريدة في سلسلة العلم

1. محمد بن عبد الله بن بطوطة. تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. تحقيق: محمد عبد المنعم العريان. دار إحياء العلوم. بيروت. ط1. 1407هـ/ 1987م. ج1. ص56

2. محمود رزق سليم. الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث. مطابع دار الكتاب العربي بمصر. القاهرة. 1377هـ/ 1957م. ص11

3. شوقي ضيف. الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف. القاهرة. ط10. ص378

4. محمود رزق سليم. الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث. ص12

5. المرجع نفسه. ص13

6. محمود رزق سليم. الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ص16

والأدب... وكان كثير من هذه المؤلفات إما موسوعات جامعة وكتبا فيأضة حُشدت فيها مسائل العلوم حشداً، وقصارى همّ مؤلفيها الجمع والاختيار أو الشرح، وإقنا مختصرات لكتب سابقة، أو تدوين الفتاوى أو تسجيل لمناقشات"<sup>1</sup>. وقد توفر في المدن المملوكية نوع من الاستقرار والأمان، أدى إلى تزايد الاهتمام بالأدب التاريخية والجغرافية، حيث كانت مدن مصر والشام تستقبل أعدادا كبيرة من الرخالة الذين يتصلون بالعلماء والأدباء ويمدونهم بمعلومات غزيرة وثرية عن البلدان التي طافوا بها، فزدهر وصف الأراضي البعيدة والمتنوعة من الهند إلى مالي وإثيوبيا والأندلس، ووجد كثير من العلماء فرص عمل في بلاط المماليك المزدهر، مما مكّنهم من لقاء المسافرين والرحالة من جميع أنحاء العالم الإسلامي والمتوسطي<sup>2</sup>.

وهذا الجوّ العلمي الثريّ ينفى جميع ما شاع عن هذا العصر من أنه عصر ضعف وتراجع، أو عصر انحطاط: "لم يكن هذا العصر مجرد عصر إحياء ما ذوى، ولمّ شتات ما اندثر من آثارنا الفكرية، وتسجيل ما هو مهدد بالزوال من أدبنا ما كان منه مستطراً في الكتب أو مبعثراً في الأذهان وحسب، وإنما كان عصر عطاء وبناء وابتكار، وآية ذلك ظهور العالم الجليل والمفكر الأديب، والمؤرخ الدقيق والفيلسوف العميق والسياسي العظيم عبد الرحمن بن خلدون، إن الظاهرة الخلدونية لا يمكن أن تتوفر لها أسباب الظهور في مجتمع متخلف الفكر جامد العطاء، كل مهمته تسجيل ما فات وتحيير نتاج فكر مضى، وإنما معنى ذلك أن المجتمع -رغم أن حُكّامه لم يكونوا عرباً- كان مجتمع علمٍ اتسم بالوقار، واتصف بالعمق، ونأى بنفسه عن أسباب الضجيج التي سايرت بعض العصور السابقة له"<sup>3</sup>.

وكانت أكبر ميزة ميّزت هذه الحركة أنها كانت تميل في أغلبها إلى التأليف الموسوعي، وقد تميّزت هذه الموسوعات بالجمع بين ضخامة الحجم ونفاضة المحتوى، الأمر الذي يؤكد ما أسلفنا قوله من أن تهمة الضعف والجمود لا نصيب لها من الصحة: "إن لظهور هذه النفاثس في العصر المملوكي على وجه الخصوص معنى كبيراً لا ينبغي أن نفوتنا دلالاته العميقة التي تصحح دون ريب تصوراً خاطئاً وقر في أذهان كثير من الدارسين. لقد ذهب بعض الكتاب دونما قصد في الأحكام، أو تروّ في إصدارها إلى أن العصر المملوكي كان عصر تخلف علمي، وتأخر أدبي، ولم يخطر ببالهم قبل إصدار تلك الأحكام أن يلتفتوا بعض الشيء إلى هذه الأعمال العلمية الكبرى الوفيرة العدد التي يغني الواحد منها عن مائة كتاب... إن هذه الكتب الكبيرة النفيسة الرحيبة لا يكاد يستغني عنها باحث، ولا يستطيع أن يغض من شأنها دارس، فهي زاد طيب لكل باحث ونبع ثر العطاء لكل من الطالب والأستاذ على حد سواء... ولم تقف ملكة التأليف السخية بأصحاب الموسوعات عند اقتصار كل واحد منهم على موسوعته وإنما جادت قرائحهم الخصيبة بأعداد وفيرة من المؤلفات"<sup>4</sup>.

وقد حاول كثير من الباحثين والدارسين رصد أسباب ازدهار الكتابة الموسوعية في العصر المملوكي واتساع نطاقها حتى صارت سمة بارزة له، وذهب كثير منهم إلى أن إقدام العلماء والأدباء في العصر المملوكي على تأليف

1. المرجع نفسه. ص 17، 18

2. ينظر: لماذا كان زمن المماليك عصراً ذهبياً للموسوعات العربية؟ <https://www.aljazeera.net/culture/2019/9/10>

3. مصطفى الشكعة. مناهج التأليف عند العلماء العرب. ص 733

4. مصطفى الشكعة. مناهج التأليف عند العلماء العرب. ص 732

الموسوعات يعود إلى حرصهم على حماية التراث العلمي والأدبي الإسلامي من غوائل الدهر بعد الفاجعة التي ألمّت به عقب الغزو التتري. فقد أثار سقوط بغداد (656هـ) وضياح آلاف الكتب والمجلدات من مكنتاتها بالحرق والرمي في النهر الفزع في قلوب المسلمين من ضياح تراثهم، وبانت حاضرة الخلافة العباسية كما وصفها ابن جبير: " كالطلل الدارس، والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حُسْنَ فيها يستوقف البصر، ويستدعي من المُسْتَوْفِز العقلة والنظر"<sup>1</sup>، وصوّر لهم هول الفاجعة أنه: "بذلك ضاعت على الدين ذخائره، وعلى العلوم والآداب نفائسها، وفقدت العربية إلى الأبد آلافا من المؤلفات"<sup>2</sup>.

وهو الرأي الذي تبناه أنور الجندي الذي ذهب إلى أن الكتابة الموسوعية التي ظهرت خلال هذه المرحلة كانت: "محاولة لاستنقاذ التراث وتخليصه من أيدي الغزاة، وتحويله إلى موسوعات ضخمة ربما لم يُتَح لها حظ التحليل والتدقيق في هذه الفترة الصاخبة، ولكنه أُتِح لها حظ كبير من القدرة على الاستنقاذ والحفظ"<sup>3</sup>.

وتابعه فيه شوقي ضيف الذي أشار إلى القيمة الكبرى التي تكتسيها هذه الموسوعات قائلا: "وقد كُتِبَت في هذا العصر أكبر الموسوعات الأدبية من مثل (مسالك الأبصار) لابن فضل الله العمري، و(صبح الأعشى في صناعة دواوين الإنشا) للقلقشندي، و(نهاية الأرب) للنويري، و(الخطط) و(السلوك) للمقرئزي، ولولا هذه الكتب ما استطعنا اليوم أن نُورِخ للحركات الأدبية في مصر أثناء العصور الوسطى. ويظهر أن القوم اتجهوا هذا الاتجاه في التأليف مخافة ضياح العلم إذ فُقدَ كثير من الكتب حتى عصرهم، فأروا أن يكتبوا موسوعات تُغني عن الكتب المختصة بكل عهد وكل عصر"<sup>4</sup>.

وأيدّه عبد اللطيف حمزة حين أكّد أن ميل الكُتّاب في العصر المملوكي إلى الكتابة الموسوعية إنما كان بدافع حفظ التراث من الضياح بعد نكبة بغداد. حيث اتجهت نية العلماء الذين احتموا بالقطر المصري إلى: "إنقاذ الثقافة الإسلامية من مخالب الجهل والوحشية، وذلك بجمع المواد التي تتألف منها هذه الثقافة في كتب كثيرة على شكل موسوعات عظيمة لا تدع صغيرة ولا كبيرة من موادّ هذه الثقافة إلا أحصتها"<sup>5</sup>.

غير أن هذا الرأي لم يشكّل إجماعاً لدى الباحثين والدارسين الذين عارض كثير منهم هذا التوجّه، وأبطلوه بالأدلة التاريخية، وأثبتوا أنّ العصر المملوكي كان زاخراً بمصادر التراث التي كانت منتشرة في مكنتات الإمبراطورية الإسلامية من أقصى شرقها إلى أقصى غربها، وأنّ نكبة بغداد من الناحية الثقافية لم تكن بتلك الفظاعة التي تصوّها بعض المؤرخين والباحثين، وأكّدوا أن الميل إلى التأليف الموسوعي كان تطوراً طبيعياً لمسيرة الثقافة العربية الإسلامية التي بلغت في ذلك العصر حدّاً ممتازاً من التراكم العلمي والمعرفي بحيث تشعبت العلوم وتخصصت وكثرت وأصبحت الحاجة ملحة إلى جمعها واختصارها بشكل يجعلها متاحة لمن يريد أن يطلع على أبعدياتها دون الخوض في دقائقها. ومن القائلين بهذا

1. محمد بن أحمد بن جبير. رحلة ابن جبير. دار مكتبة الهلال. بيروت. ص73

2. إسماعيل أبو الفدا. المختصر في أخبار البشر. المطبعة الحسينية المصرية. القاهرة. 1325هـ/1907م. ج4. ص194

3. أنور الجندي. خصائص الأدب العربي. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ص193

4. شوقي ضيف. الفن ومذاهبه في النثر العربي. ص379

5. عبد اللطيف حمزة. الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ص315



الرأي الباحث الأمريكي في الإسلام والأدب العربي فرانز روزنتال **Franz Kurt W. Rosenthal** الذي يرى: "أنّ النشاط الهائل على مدى عدة قرون في كل حقل من الحقول الأدبية والعلمية أسفر عن تأليف عدد ضخم من الكتب، فلم يكن عمر العالم المختصّ يكفي لقراءة كلّ ما كُتِبَ في ميدان اختصاصه فكيف بدراستها، ومن هنا كان ازدياد الطلب على الكتب الموسوعية المختصرة"<sup>1</sup>، فالموسوعات - في نظره - إنما كانت نتيجة لوفرة الكتب لا إلى ندرتها والخوف من ضياعها.

وممن ذهب هذا المذهب مصطفى الشكعة الذي نفى دافع الحفاظ على التراث من الضياع، وعدّه حكماً قاصراً، ورأى أن ظهور الموسوعات في العصر المملوكي دليل قويّ على أن البيئة العلمية في ذلك الوقت كانت تتميز بخصوبتها وازدهارها وتألقها الحضاري، وليس فيها ما يشير إلى أيّ تراجع أو تخلف ثقافي بسبب سقوط بغداد: "ومن ثم، فإن الموسوعات المملوكية ينبغي أن يعلل ظهورها - في نطاق الأمانة العلمية والعدل التاريخي - بأن بيئة نشأتها كانت بيئة خصبة مستنيرة غير جامدة ولا متخلفة، وأن فترة تأليفها كانت فترة ازدهار عقلي وتألق حضاري في مختلف فروع الآداب وجوانب المعرفة الإنسانية"<sup>2</sup>.

ويبدو أن مصطفى الشكعة متأثر في رأيه هذا بالمستشرق الروسي كراتشكوفسكي الذي ذهب إلى أن ازدهار ظاهرة التأليف الموسوعي في العصر المملوكي ميزة خاصة به، وليست ناجمة عن سبب خارجي، بل هي وليدة البيئة المصرية التي كانت هيأت الظروف المناسبة لها: "من وجهة نظر التاريخ الأدبي فإنّ الموسوعات تنتمي إلى طراز مصري صرف من المؤلفات الوصفية التي وضعها عمال وعلماء حكومة عصر المماليك... وكنمط أدبي فإنّ هذه الموسوعات وليدة تاريخ طويل معقد... وعلى الرغم من أنها عمّلت أساساً من أجل كتّبة الدواوين الذين كانوا زينة الجهاز الكتابي والإداري لمصر آنذاك إلا أنّ جميع المثقفين قد اهتموا بمطالعتها، مما جعل مؤلفيها يولون اهتماماً كبيراً للأسلوب الأدبي"<sup>3</sup>.

ويعضد هذا الرأي وجهة نظر أمينة محمد جمال الدين التي ترى أن إرجاع سبب نشأة الموسوعات إلى خوف المسلمين من ضياع تراثهم بعد انهيار الخلافة العباسية في بغداد أمر يميل إلى المثالية والتجريد، ولا يراعي الواقع الحيّ للتاريخ الأدبي، وتدلل على ذلك بأن النويري عندما تصدّى لكتابة مؤلفه (نهاية الأرب في فنون الأدب): "لم يجد أيّ عناء في العثور على كتب التراث، بل كانت المكتبة العربية برمتها في متناوله. ولم يشكّ من ندرة المصادر التي يتعين عليه الرجوع إليها لاستخلاص أهم ما فيها"<sup>4</sup>.

وهذا الأمر ينطبق على كل علماء ذلك العصر وكُتّابه: "ولم يقل واحد من كُتّاب الموسوعات في العصر المملوكي - لا تصريحاً ولا تلميحاً - بأنه إنما يؤلف موسوعته خوفاً من ضياع العلم واندثاره، فلم تطرأ هذه الفكرة لأحد منهم على

1. فرانز روزنتال. مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. ترجمة: أنيس فريحة. طبعة بيروت. 1980م.

2. مصطفى الشكعة. مناهج التأليف عند العلماء العرب. ص 760

3. أغناطيوس كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي. ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. ج 1. ص 405

4. أمينة محمد جمال الدين. النويري وكتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، مصادره الأدبية وآراؤه النقدية. دار ثابت للنشر والتوزيع. القاهرة. ط 1.

بال، ولم يحدث أن استغنى أحد بهذه الموسوعات عن المصادر الأصلية التي نقلت تلك الموسوعات عنها<sup>1</sup>، كل ما في الأمر أنّ الوسط العلمي السائد في ذلك الوقت قد تأثر بالظروف الاستثنائية التي جعلت مصر قبلة للعلماء في كل فن، فهاجروا إليها من كل حذب وصوب، واستقروا بها، وأن المعارف الإنسانية آنذاك قد تنوعت وتشعبت: "ووجد المثقفون عامة والكتّاب خاصة أنهم بحاجة إلى أن يُلمّوا من كل فنّ من هذه الفنون والعلوم بطرف، وقبل أن ييزغ فجر عصر التخصص الدقيق، فأفادت هذه الطائفة بالجوّ العلمي ذي الطابع الموسوعي في مصر، وأدركت حاجة الناس إلى نوع من التأليف يقابل طبيعة العصر الذي يعيشون فيه"<sup>2</sup>.

ونخلص إلى أن الحقيقة التي لا يختلف عليها اثنان أن الكتابة الموسوعية في التراث العربي الإسلامي قد بلغت في العصر المملوكي أوج ازدهارها، وأتحفت المكتبة العربية بنوادير من الموسوعات التي طبقت شهرتها الآفاق، سواء كان الدافع وراء تأليفها هو حماية التراث من الضياع، أم أن البيئة العلمية الخصبة هي التي هيأت لظهورها بهذا الشكل الرائع، باعتبار العصر المملوكي حلقة متميزة من حلقات الحضارة الإسلامية التي انتقل ثقلها من بغداد بعد سقوطها إلى مصر والشام لتكتمل مسيرتها، وتستنفد ما بقي لديها من طاقات فياضة قادرة على العطاء والإبداع. وفيما يلي بسط لأهمّات الموسوعات التي ظهرت في العصر المملوكي.

### ثالثاً: المبحث الثالث: أبرز الموسوعات في العصر المملوكي

شهد العصر المملوكي - كما أسلفنا - حركة تأليف نشيطة جداً، إذ لم يكن - كما شاع عنه - زمن انحطاط وانحدار واستنزاف للثقافة العربية، بل كان بحق العصر الذهبي للأدب الموسوعي العربي، فكان أكثر ما يميزه ميل الكتّاب إلى التأليف الموسوعي، إذ تبوأ النثر في هذا العصر مكانة مرموقة، وكان حاله أحسن من حال الشعر وأعلى رتبة منه لارتباطه بعمل الوزراء في ديوان الإنشاء: "ومن ثمة فإنّ تطور النثر وأساليبه تبعاً لتطور مناحي الحياة وكثرة الإقبال عليه كان مدعاً إلى توجّه النقاد إلى هذا الفنّ والارتقاء به"<sup>3</sup>. وقد برز من كتّاب الموسوعات ثلاثة أقطاب هم: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب النويري وموسوعته "نهاية الأرب في فنون الأدب"، وشهاب الدين بن فضل الله العمري وموسوعته "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، وأبو العباس أحمد بن علي القلقشندي وموسوعته "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، وثلاثتهم كانوا كتّاباً متميّزين في دواوين الإنشاء، وموظفين مرموقين في رتبة وزراء في بلاط السلاطين المماليك، ولا تزال مؤلفاتهم إلى يومنا هذا ملء السمع والبصر، تشهد لهم بالإبداع والذكاء اللامع لما حوته من كنوز علمية وثروة أدبية لا تقدر بثمن.

وقد سبقهم في هذا المجال بعض العلماء والأدباء الذين مهدوا الطريق لظهور هذه الروائع الموسوعية الثلاث ومنهم شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي (ت 651هـ) الذي ألف موسوعة ضخمة في أربعين مجلداً وسماها "فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الأبواب" ضمنها مختلف العلوم والتاريخ والآداب والقانون

1. أمينة محمد جمال الدين. النويري وكتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، مصادره الأدبية وآراؤه النقدية. ص100

2. المرجع نفسه. ص101

3. ريان عبد المجيد جلول. "صناعة الكتابة في العصر المملوكي بين ابن الأثير والصفدي". مجلة رؤى. جامعة سوق أهراس. ع5. فيفري 2017م.

واللغة. غير أن أكثر أجزائها فقدت تماما ولم يبق من الموسوعة كلها سوى بعض المختصرات التي قام بها ابن منظور صاحب (لسان العرب) الذي أدرك أجزاء الموسوعة قبل ضياعها ولخص بعضها منها. ومن أمثلة هذه الموسوعات أيضا "أنس الملوك" لابن الصفار المارديني (ت658هـ)، و"التذكرة الكندية" لعلاء الدين الكندي الوداعي في خمسين مجلدا ضمنها ألوانا من الآداب والعلوم والأشعار والأخبار.

ومنها أيضا "مناهج الفكر ومباهج العبر" لجمال الدين الوطواط (718/632هـ)، وهي موسوعة علمية تحوي كثيرا من المعارف في الطبيعة والفلك والجغرافيا والنبات والحيوان والكيمياء، مع بعض الفصول في الأدب، وقد قسمها إلى أربعة فنون، الفن الأول في ذكر السماء، والفن الثاني في خلق الأرض وهيئتها، والفن الثالث في الحيوان وما يتعلق به، والفن الرابع في النبات وما يتعلق به. وكل فن ينقسم بدوره إلى تسعة أبواب. وقد أبان فيها الوطواط عن تبخره في كافة العلوم الفلكية، والتاريخية، والرياضية، والطبيعية، وكانت هذه الموسوعة بمثابة قاعدة متينة اتكأ عليها كثير من الكتّاب الذين جاؤوا بعده، والذين أشاروا إلى فضله عليهم<sup>1</sup>، وهو ما أكده كراتشكوفسكي في قوله إن كتاب "مناهج الفكر ومباهج العبر": "قد لعب بلا شك دورا كبيرا في تطوير نمط الموسوعات، وهو يرتبط ارتباطا مباشرا بموسوعة النويري. وبرهان ذلك ليس فقط في أن النويري ينقل عنه مرارا، بل لأنه من المحتمل أن يكون قد استعار عنه طريقة التبويب إلى فنون محتفظا أحيانا بمحتويات الكتاب نفسها"<sup>2</sup>. وفيما يلي تعريف مختصر بأهم الموسوعات التي أشرنا إليها آنفا:

#### أ. موسوعة "نهاية الأرب في فنون الأدب" لأحمد بن عبد الوهاب النويري (733/677هـ)

والنويري هو صاحب الفضل في: "إعطاء الموسوعات في العصر المملوكي طابعها المميّز وشكلها الناضج"<sup>3</sup>، وقد أخرج موسوعته للقراء في شكل دائرة معارف احتوت على ما انتهت إليه العلوم حتى عصره، وقسمها إلى خمسة فنون رئيسية يحتوي كل فن منها على خمسة أقسام. حيث جعل الفن الأول في السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية، والفن الثاني في الإنسان وما يتعلق به، والفن الثالث في الحيوان الصامت، والفن الرابع في النبات، والفن الخامس في التاريخ وهو الذي استغرق ثلاثة أخماس الكتاب لتقديره الكبير لفن التاريخ باعتباره منجم الخبرة الإنسانية المتراكمة عبر القرون، الأمر الذي جعل كثيرا من الدارسين والباحثين يعدونه رأس المدرسة التاريخية المصرية في العصر المملوكي. وتضم الموسوعة: "ألواناً من المعرفة، وأشتاتاً من الأخبار، وموضوعات من الأدب، وقضايا من التاريخ، ونماذج من أنظمة الحكم، وظواهر من الكون... والكثير الفريد من العلوم والنادر الخطير من أخبار التاريخ، كل ذلك في نطاق العلوم المتعارف عليها"<sup>4</sup>. وأبرز ما ميّز النويري في موسوعته الأمانة في النقل وعزو المعلومات إلى أصحابها في دقة شديدة سمحت للباحثين والدارسين بالوقوف على كنوز من التراث ضاعت ولم يبق لها من أثر سوى ما احتوت عليه موسوعة النويري، وقد بلغ من قيمتها أن ترجمت للغات اللاتينية منذ القرن الثامن عشر الميلادي.

1. إلهام أحمد سليمان الكركي. منهجية الوطواط الكندي في موسوعته (مناهج الفكر ومناهج العبر). جامعة مؤتة. الأردن. 2005م. ص87

2. أغناطيوس كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي. ج1. ص406

3. أمينة محمد جمال الدين. النويري وكتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، مصادره الأدبية وآراؤه النقدية. ص103

4. مصطفى الشكعة. مناهج التأليف عند العلماء العرب. ص739

## ب . موسوعة "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لشهاب الدين بن فضل الله العمري (749/700هـ)

كان مؤلفها إماما، حافظا حجة، ورئيس أهل الأدب في زمانه. نبغ في الكتابة الديوانية وترأس ديوان الإنشاء الذي يتولى تحرير كتب الخليفة ورسائله في بلاط السلطان الناصر قلاوون.

والمسالك والممالك التي جعلها ابن العمري موضوعا لموسوعته علم نشأ في أوج ازدهار الخلافة العباسية وظل يتطور بشكلٍ مطرد، إلى أن بلغ ذروته في القرنين السابع والثامن الهجريين، ثم اتخذ في صدر العصر المملوكي شكل موسوعات كوزموجرافية، وهو أقرب ما يكون للجغرافيا الوصفية **Geographie Descriptive**؛ "لأنه لم يقتصر على ذكر الطرق والمسالك والمراحل، بل وصف البلدان والمدن - إدارة، وتاريخًا، واقتصادًا - أوصافًا تفلُّ أو تزيد باختلاف العصر والمؤلف<sup>1</sup>"، ومما ساعد على انتشار هذا النوع من المؤلفات في العصر المملوكي: "تزايد الاهتمام بالآداب التاريخية والجغرافية ووصف الأراضي البعيدة والمتنوعة من الهند إلى مالي وإثيوبيا والأندلس، ووجد كثير من العلماء فرص عمل في بلاط المماليك المزدهر، مما مكّنهم من لقاء المسافرين والرحالة من جميع أنحاء العالم الإسلامي والمتوسطي"<sup>2</sup>.

وتتكون الموسوعة من عشرين جزءًا قسمها المؤلف إلى قسمين: القسم الأول في الأرض. وينقسم إلى نوعين: النوع الأول في ذكر المسالك، وفيه خمسة أبواب: الأول في أبعاد الأرض وأوضاعها، والثاني: في الأقاليم السبعة، والثالث: في البحار وما يتعلّق بها من مسائل، الرابع: في القبلة وعلاماتها، والخامس: في الطرق.

أما القسم الثاني فقد خصصه لأهل الأرض والأقوام المختلفة، وفيه أربعة أنواع: الأول: يُقارن فيه بين الشرق والغرب، ويتحدّث فيه عن الطبيعة والحيوان، وطوائف العلماء. والثاني: في الأديان المختلفة. والثالث: في طوائف أهل الدين. والرابع، في التاريخ، وفيه بابان: الباب الأول: في الحكومات قبل الإسلام. والباب الثاني: في الحكومات بعد الإسلام. وأفراد النوع الثاني لذكر المسالك، وضمنه خمسة عشر بابًا، تحدّث فيه بالترتيب من الشرق إلى الغرب عن البلدان والممالك التالية: الهند، بيت جنكيز خان، الجبل، أترارو، آسيا الصغرى، مصر والشام والحجاز، اليمن، المسلمين بالحبشة، والسودان، مالي، جبال البربر، إفريقية، بر العدو (المغرب)، الأندلس، العرب المعاصرين له وأماكنهم.

وتعد موسوعة "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" واحدة من أمهات الموسوعات ودائرة معارف جغرافية كبرى تضمنت معلومات ثمينة وغزيرة عن جغرافيا المسالك والأقاليم والبحار في الهند، وإيران، وبلاد الترك، والصين، والروم، ومصر، والشام، والحجاز وغيرها، بالإضافة إلى طبقات الفقهاء واللغويين والفلاسفة والأطباء، والموسيقى والشعر، والحيوان والنبات والأعشاب، والمعادن والأحجار، والمذاهب والأديان، وتاريخ الملوك وغيرها من الموضوعات التي جمعها صاحبها وتحريها فيها الدقة والموضوعية حيث اعتمد على مصادر أصلية من أعيان الثقات من ذوي التدقيق

<sup>1</sup> الحسن بن أحمد المهلب العزبي. المسالك والممالك. المقدمة. تحقيق: تيسير خلف. دار التكوين للطباعة والنشر والتوزيع. جدة. المملكة العربية السعودية. ط 1. 2006م. ص

<sup>2</sup> الموسوعات العربية في عصر المماليك [/https://www.islamweb.net/ar/article/228673](https://www.islamweb.net/ar/article/228673)

والتحقيق: "إن ابن فضل الله العمري في موسوعته "مسالك الأبصار" ينتقل بقارئه في غير ما ملل ولا سأم من واحة أدبية إلى جنة فكرية إلى باحة تاريخية إلى عمائر أثرية، وهو في ذلك كله أدبي السرد جغرافي المنهاج"<sup>1</sup>.

### ج. موسوعة "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (821/756هـ)

الذي تولّى ديوان الإنشاء في عهد السلطان المملوكي الظاهر برفوق. وتتكون الموسوعة من 14 جزءاً، وقد حوت من كل فن طرفا بحيث يجد فيها الأديب، والمؤرخ، وعالم الدراسات الاجتماعية، والمتخصص في النظم الإدارية والسياسية على اختلاف توجهاتهم بغيتهم، ولعل إحساس المؤلف بنفاسة محتوى موسوعته هو الذي حملته على تسميتها بهذا الاسم. فالأعشى في اللغة هو ضعيف البصر الذي يعجز عن الرؤية ليلا ويبيت في كرب إلى أن يطلع عليه الصباح فيستعيد قدرته على الرؤية ويباشق قضاء حوائجه، والمؤلف يقصد أن الكُتّاب لن يوفقوا في خطتهم إلا إذا درسوا ما احتوته الموسوعة من معلومات وإرشادات تنير لهم ظلمة طريقهم، ولن يدعوا في صناعتهم إذا لم يجعلوها رائداً ومناراً بمثابة الصبح الذي يطلع على الأعشى.

وقد قسم موسوعته إلى مقدمة وعشر مقالات وخاتمة. خصص المقدمة للحديث عن المبادئ التي يتعين على الكاتب الالتزام بها في كتابة الإنشاء، وتطرق في المقالة الأولى إلى ما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية والعملية، ورصد فيها أنواع الأوراق والأحبار الموجودة في هذا العصر، ونبذة عن الخط العربي. وتناول في المقالة الثانية في جغرافيا الأقاليم أي المسالك والممالك بلغة عصره مع بيان شؤون الديار المصرية. وذكر في المقالة الثالثة أموراً تشترك فيها أنواع المكاتبات والولايات وغيرها من ذكر الأسماء والكنى، وكيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات ونحوها على كتاب الإنشاء، ومقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام، وكتابة الملخصات وبيان الفواتح والخواتم، فهي مقالة تعلم الكاتب ما يحتاج إليه من النظم المتعلقة بالمكاتبات الإدارية والمصطلحات الخاصة التي لا يستغنى عنها في رسائله. وجعل المقالة الرابعة في المكاتبات وضمنها فهرسة الملوك والخلفاء والسلاطين والعلماء والأمراء، وبعض المتصوفة، وبعض القضاة ونظمهم وأمراء الجيوش وهي أهم مقالات الكتاب وأضحها، إذ تضم مصطلحات المكاتبات الدائرة بين ملوك الشرق والغرب، منذ بداية الإسلام،

وجعل المقالة الخامسة في الولايات والسلطنة والإمارات، والمقالة السادسة في الوصايا الدينية والمسامحات والإطلاقات وبعض العقود، والاتفاقات. والمقالة السابعة في الإقطاعات والمقاطعات وأنواعها وتاريخ نشأتها. والمقالة الثامنة في أنواع الأيمان في العصر الجاهلي وبعد دخول الإسلام. والمقالة التاسعة في عقود الصلح والفسوخ الواردة على ذلك، وعقود الأمان مع أهل الذمة. وأورد في المقالة العاشرة بعض النماذج الأصلية لبعض الرسائل الملوكية التي تحتوي على المديح والفخر، كما تتناول تاريخ البريد في مصر وبلاد الشام وطرق استخدام الحمام الزاجل وكل ما يخصه. أما الخاتمة فذكر فيها أموراً تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، كالكلاب عن البريد ومطارات الحمام الرسائل، وأبراجه، والمناور، والمحرقات

<sup>1</sup> مصطفى الشكعة. مناهج التأليف عند العلماء العرب. دار العلم للملايين. بيروت. ط6. 1991م. ص743. 744

وقد استطاع المؤلف أن ينسق بين كل هذه المعلومات بمنهجية ظهرت فيها قوته العلمية وثقافته الغزيرة، بحيث زود المكتبة العربية بمواضيع وفصول رائقة عن أنظمة الحكم والإدارة والسياسة والمكتبات، والتقاليد والملابس، وتاريخ الدواوين والوزارات، وفنون الكتابة، وملابس الجنود وأسلحتهم، والألعاب الرياضية، ومظاهر المجتمع الإسلامي، وعلم الخط وأدواته، كما ضمّن موسوعته كتباً أدبية نفيسة بتمامها وحفظها من الضياع، وجمع فيها كثيراً مما تفرّق في غيرها من المؤلفات السابقة والمعاصرة له، بالإضافة إلى كونها دليلاً شاملاً في فن الكتابة الرسمية للدولة وفنون التراسل والمخاطبة المكتوبة، ومصدراً أميناً لأهم وثائق ديوان الإنشاء بمصر، مع ما صحب هذا الدليل من النماذج المختلفة للرسائل والتي تتيح للكُتّاب مجالاً فسيحاً لاحتدائها، لذلك عدّها الباحثون والدارسون أضخم موسوعة وصلتنا في أدب الإنشاء ومراسلات الملوك<sup>1</sup>.

واختيار هذه الموسوعات الثلاثة لا يعني أن باقي الموسوعات لا يرتقي إلى المستوى المطلوب، بل إنها جميعاً تمثل في ذاتها ثروة علمية وأدبية ولغوية وتاريخية ودينية لا تقدّر بثمن، وكل ما في الأمر أن هذه النماذج قد لقيت القبول لمضامينها الرائعة التي أشاد بها معاصروها، ثم المستشرقون من بعدهم، ثم الباحثون والدارسون بمختلف تخصصاتهم. ثم اتجهت الموسوعات بعد ذلك إلى التخصص: "وحدثت النقلة الكبيرة في مناهج التأليف الموسوعي من نطاق التعدد والشمول لموضوعات شتى إلى نطاق التحدّد والشمول لموضوع بذاته"<sup>2</sup>، وأصدق ما يمثل هذه المرحلة موسوعة "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للمقريزي (845هـ)، وهي على تخصصها التاريخي أفسحت في صفحاتها العديدة مكاناً رحيباً للمعرفة، وموسوعة "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري بردي (874هـ) والتي تقع في إثني عشر جزءاً، و"الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلاني وغيرها.

#### خاتمة:

ونخلص في نهاية هذا البحث إلى أن العصر المملوكي كان أشبه بنهضة مُستأنفة بعد نكسة الغزو المغولي وفواجهه، ودورة حضارية بدماء جديدة ملؤها التحدي والإصرار على البقاء، وبقدر ما كانت فرصة ثمينة للمّ شتات التراث العريق الذي بعثرته أيادي الغزو الأهودج كانت في المقابل فضاءً فسيحاً للمواهب النادرة والعبقريات الفذة لتبرز إبداعاتها وتضيف إلى الحضارة الإسلامية عطاءً ثقافياً وفكرياً في أعلى درجات الرقي والروعة. وقد توصلنا إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

1. أن مصطلح الموسوعة مصطلح حديث غربي النشأة، تمّ تعريبه ليبدل على كتاب يجمع معلوماتٍ في كل ميادين المعرفة، ويحيل إلى الأعمال المرجعية الضخمة التي تُمكّن من الانتقال بين التخصصات المختلفة بسهولة.
2. أن الموسوعات الغربية بدأت بالظهور منذ القرن الثامن عشر الميلادي، وعلى الرغم من أن مصطلح الموسوعات غربي إلا أن مفهومها يحيل إلى ظاهرة بارزة عرفت الثقافة العربية الإسلامية منذ القرن الرابع الهجري تؤكد أن

<sup>1</sup> محمد بن عبد العزيز الدباغ. "نظرات حول كتاب (صبح الأعشى) للقلقشندي". مجلة دعوة الحق. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط. ص 6. ع 6. مارس 1963م. ص 43

<sup>2</sup> مصطفى الشكعة. مناهج التأليف عند العلماء العرب. ص 745

بداية الموسوعات في الفكر الإنساني قد نشأت وتطورت وازدهرت في الحضارة الإسلامية، واكتمل نضجها في العصر المملوكي قبل أن تعرف طريقها إلى أوروبا.

3. أن بداية العصر المملوكي صادف سقوط بغداد على أيدي التتار، الأمر الذي أسفر عن هجرة كتيبة للعلماء إلى مصر والشام، وإن كانت مصر قد نالها القسط الأكبر من هذه الهجرة لوجود مركز السلطنة فيها، وبذلك انتقلت منارة العلم من بغداد إلى القاهرة.

4. أن هذه الهجرة التي أعقبها بعد ذلك هجرة أخرى للعلماء المسلمين الفارين من حملات الإبادة بعد سقوط الأندلس كانت فاتحة خير على الثقافة العربية الإسلامية التي انتعشت انتعاشا كبيرا ووجدت من سلاطين المماليك كل الدعم والتشجيع.

5. أن سلاطين المماليك كان لهم الفضل الكبير في تشييد المساجد، وإنشاء المعاهد والمدارس، وتشجيع انتشار المكتبات، والارتقاء بالعربية من خلال ديوان الإنشاء الذي كان أصحابه من نخبة المثقفين المقربين من السلطان، مما أدى إلى ازدهار العلوم والآداب والفنون بمختلف أنواعها.

6. أن أبرز ما ميّز النشاط العلمي والثقافي في العصر المملوكي هو الميل إلى الكتابة الموسوعية التي اختلف الدارسون في أسباب ظهورها وازدهارها في هذا العصر، حيث رأى بعضهم أنها كانت محاولة مستميتة للمحافظة على كنوز التراث بعد ضياع آلاف المصنفات والمصادر إثر سقوط بغداد، بينما رأى بعضهم الآخر أنها تطور طبيعي للثقافة العربية الإسلامية التي بلغت في هذا العصر درجة عالية من الاكتمال والتراكم الذي حتمّ جمعها وترتيبها واختصار أمهات المصادر فيها بطريقة منهجية.

7. أنّ من أبرز الموسوعات التي ميّزت العصر المملوكي (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري التي غلب عليها الطابع التاريخي، و(مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري التي غلب عليها الطابع الجغرافي، و(صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي التي غلب عليها الطابع اللغوي والأدبي، والتي مثّلت جميعا أعلى النماذج التي وصلت إليها الكتابات الموسوعية وأرقاها.

## 5. قائمة المراجع:

### المؤلفات:

1. إسماعيل أبو الفدا. المختصر في أخبار البشر. المطبعة الحسينية المصرية. القاهرة. 1325هـ/1907م
2. أغناطيوس كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي. ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.
3. إلهام أحمد سليمان الكركي. منهجية الوطواط الكتبي في موسوعته (مناهج الفكر ومناهج العبر). جامعة مؤتة. الأردن. 2005م.

4. أمينة محمد جمال الدين. النويري وكتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، مصادره الأدبية وآراؤه النقدية. دار ثابت للنشر والتوزيع. القاهرة. ط1. شعبان 1404هـ/ 1984م.
5. أنور الجندي. خصائص الأدب العربي. دار الكتاب اللبناني. بيروت.
6. الحسن بن أحمد المهلب العزبي. المسالك والممالك. المقدمة. تحقيق: تيسير خلف. دار التكوين للطباعة والنشر والتوزيع. جدة. المملكة العربية السعودية. ط1. 2006م.
7. عبد الرحمن بن خلدون. المقدمة. دار القلم. بيروت. ط4. 1981م.
8. السباعي بيومي. تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين. مطبعة العلوم. القاهرة. 1974م.
9. سعيد عبد الفتاح عاشور. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك. دار النهضة العربية. القاهرة. 1992م.
10. شوقي ضيف. الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف. القاهرة. ط10.
11. عبد الغني أبو العزم. معجم الغني الزاهر. مؤسسة الغني للنشر. الرباط. ج4.
12. فرانتر روزنتال. مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. ترجمة: أنيس فريحة. طبعة بيروت. 1980م.
13. عبد اللطيف حمزة. الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.
14. مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط. مكتبة الشروق الدولية. القاهرة. ط4. 1425هـ/ 2004م.
15. محمد بن أحمد بن جبير. رحلة ابن جبير. دار مكتبة الهلال. بيروت.
16. محمد بن عبد الله بن بطوطة. تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. تحقيق: محمد عبد المنعم العريان. دار إحياء العلوم. بيروت. ط1. 1407هـ/ 1987م.
17. محمود رزق سليم. الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث. مطابع دار الكتاب العربي بمصر. القاهرة. 1377هـ/ 1957م.
18. مصطفى الشكعة. مناهج التأليف عند العلماء العرب. دار العلم للملايين. بيروت. ط6. نيسان/ أبريل 1991م.
19. معجم المعاني الجامع. عمادة كلية الدراسات العليا. قسم اللغة العربية وآدابها. مكتبة عين الجامعة. جامعة النجاح الوطنية. فلسطين.

#### المجلات والدوريات:

20. مجلة دعوة الحق. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط. س6. ع6. مارس 1963م.
21. مجلة رؤى. جامعة سوق أهراس. ع5. فيفري 2017م.

#### مواقع الانترنت:

22. <https://ar.warbletoncouncil.org/enciclopedia-2836>
23. <https://berber.ahlamontada.com/t2586-topic>



24. <https://www.aljazeera.net/culture/2019/9/10/>

25. <https://www.marefa.org/>

26. <https://www.islamweb.net/ar/article/228673/>